

خاتمة

ونظرة عامة إلى ما عرضنا له من هذه الفروق في ذلك العصر ترينا كيف تفرق الناس إلى شيع وأحزاب ومذاهب، مع أننا لم نذكر فيما ذكرنا إلا الطوائف الرئيسية، وكل طائفة تفرع منها فروع يصعب عدها، فقد انقسم المعتزلة إلى نحو ثلاث عشرة فرقة، والخوارج إلى نحو عشرين، والشيعية إلى نحو ثلاثين، والمرجئة إلى نحو سبع، هذا عدا فرقاً أخرى لم نذكرها إذ لم يتسع لها صدر كتابنا، وهذا أيضاً عدا ما كان في المملكة الإسلامية من الديانات الأخرى، من اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة، وانقسام كل من هؤلاء إلى مذاهب ونحل.

وكان بجانب هؤلاء جميعاً جماعة من الشكاك، رأوا هذه المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة، والأدلة المتعارضة، فشكوا فيها جميعاً وكفروا بالجدل، وقالوا: إنه لا يسلم إلى إيمان، وقالوا: «كل ما ثبت بالجدل فبالجدل يُنقَض».

وحتى هؤلاء لم يشاءوا أن يكونوا فرقة واحدة، بل انقسموا إلى فرق ثلاث: فمنهم فرقة عممت شكها في كل شيء حتى في إثبات الإله والنبوة، «فلم تحقق الباري ولا أبطلته، ولا أثبتت النبوة ولا أبطلتها، وهكذا في جميع الأديان والأهواء، لم تُثبت شيئاً من ذلك ولا أبطلته، وقالوا: إن الحق في أحد هذه الأقوال بلا شك، إلا أنه غير بين ولا ظاهر ولا متميز» وكان إسماعيل بن يونس الطيب اليهودي تدل أقواله على أنه كان يذهب هذا المذهب.

وفرقة من هؤلاء الشكاك أثبتوا الإله، وشكوا فيما عدا ذلك حتى النبوات، فأثبتت الخالق وقطعت بأنه حق، ثم لم تحقق النبوة ولا أبطلتها، ولا حققت دين ملة ولا أبطلته.

وفرقة ثالثة أثبتت الإله والنبوة وشككت فيما عدا ذلك، فقطعت أن الله حق، وأن النبوة حق وأن محمداً رسول الله، ثم لم تقطع بشيء بعد ذلك.

وحجج هؤلاء الشكاك أنهم قالوا: «إنا وجدنا الديانات والآراء والمقالات كل طائفة تدعي أنها إنما اعتقدت ما اعتقدته عن الأوائل، وكل طائفة منها تناظر الأخرى فتنصف منها، وربما غلبت هذه في مجلس، ثم غلبتها الأخرى في مجلس آخر على حسب قوة نظر المناظر وقدرته على البيان، فهم في ذلك كالمتهارين يكون الظفر سجالاً بينهم... فصح أن ليس هاهنا قول ظاهر الغلبة، ولو كان لما أشكل على أحد ولما اختلفت الناس في ذلك، كما لم يختلفوا فيما أدركوه بحواسهم، وبدائة عقولهم، وكما لم يختلفوا في الحساب، وفي كل شيء عليه برهان لائح. قالوا: ومن المحال أن يبدوا الحق إلى الناس فيعاندوه بلا معنى، ويرضوا بالهلاك في الدنيا والآخرة بلا سبب، فلما بطل هذا صح أن كل طائفة إنما تتبع إما ما نشأت عليه، وإما ما يخيل لأحدهم أنه الحق دون تثبت ولا يقين. قالوا: ونرى الجماعة الكثيرة قد طلبوا علم الفلسفة وتبحروا فيها، ووسموا أنفسهم بالوقوف على الحقائق وبالخروج عن جملة العامة، ونجد آخرين قد تمهروا علم الكلام، وأفنوا فيه دهرهم ورسخوا فيه، وفخروا بأنه قد لاح لهم الفرق بين الحق والباطل بالحجج، ثم نجدهم كلهم - فلسفيهم وكلاميهم - مختلفين كاختلاف العامة وأهل الجهل بل أشد اختلافاً؛ فالناس بين يهودي يموت على يهوديته، ونصراني يتهالك على نصرانيته وتثليثه، ومجوسي يستميت في مجوسيته، ومسلم يستقتل في إسلامه، واستوى العامي في ذلك مع المتكلم. ثم نجد أهل هذه الأديان في فرقهم كذلك سواء بسواء، فإن كان يهودياً أو نصرانياً تمسك بفرقه وتهالك غيظاً على ما عداه، وإن كان مسلماً فإما خارجياً يستحل دماء سائر أهل ملته، وإما معتزلياً يكفر سائر فرق ملته، وإما شيعياً لا يتولى سائر فرق ملته... إلخ، فصح أن جميعهم إما متبعاً للذي نشأ عليه والنحلة التي تربي عليها، وإما متبعاً لهواه قد تخيل أنه الحق.. فلو كان للبرهان حقيقة لما اختلفوا فيه هذا الاختلاف ولبان على طوال الأزمان ومرور الدهور، ونرى الفيلسوف أو المتكلم يعتقد مقالة، وينظر عليها، ويعادي من خالفها، ويبقى على ذلك حياته، ثم تبدو له بادية فيرجع أشد ما كان عداوة لما كان ينصر، وينصرف يناظر في إفسادها، ويجاهد في إبطائها. قالوا: فدل هذا كله على فساد الأدلة وتكافئها، قالوا: وبراهينكم التي

تقيمونها إما أن تكون عن طريق الحواس، وإما أن تكون عن ضرورة العقل وبديته، ولو كانت كذلك لم تختلفوا فيما يدرك بالحس وبديته العقل، مثل أن ثلاثة أكثر من اثنين، وأن المرء لا يكون قائماً قاعداً في وقت واحد، وإما أن تكون قد صحت عن طريق غير الحواس وبداهة العقل، فما نوع هذا الدليل؟ وما قيمته إذا كان يصلح لكم ولغيركم وللشيء ونقيضه؟^(١).

وهذا المذهب -مذهب الشك- يذكرنا بمذهب السوفسطائية اليونانية قديماً، ومذهب الذرائع -البراجماتزم- حديثاً. وقد كان لهذا المذهب أثر كبير في الصوفية؛ إذ رأوا أن البراهين المنطقية لا تكسب إيماناً صحيحاً فطلبوا الإيمان من طريق الوجدان.

وأياً ما كان، فقد انتشر في العصر العباسي آراء وملل ونحل لا عداد لها، وكانت الحرب فيها حرباً عواناً بين كل ديانة والديانات الأخرى، وبين كل فرقة في مذهب والفرق الأخرى، وأصبحت المملكة الإسلامية ميداناً لكل هذه الحروب. فإن نحن تساءلنا: هل كان كل هذا التفرق لخير المسلمين؟ أو لم يكن خيراً لهم أن يكونوا كما كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أمة واحدة وفرقة واحدة تعتقد مبادئ واحدة؟

قلنا: إن ذلك كان ككل شيء في عالمنا، ليس خيراً صرفاً ولا شراً صرفاً، وإن هذا الانقسام والتفرق كان نتيجة طبيعية لاتساع رقعة البلاد الإسلامية، وتكوّنها من عناصر مختلفة في الجنس وفي العقليات وفي الديانات الموروثة؛ فكان محالاً بعد دخول هذه الطوائف المختلفة في الإسلام أن تعتقد الإسلام في صراحته الأولى وسهولته وبساطته، وكان لا بد أن تمزجه بعقلياتها ودياناتها وأغراضها، وكان ضرورياً للدين

(١) لخصنا هذا المذهب من كلام ابن حزم في الفصل في الملل والنحل جزء ٥ / ٩١٩ وما بعدها، وقد أطل في الرد عليهم، فليرجع إليه من شاء.

أن يتفلسف؛ لأن هذا طور طبيعي من أطوار الدين.

لقد كان من مزايا هذا الاختلاف ما يدل عليه من حرية في الفكر وحرية في سياسة الدولة، فاحتملت كل هذه الآراء والمذاهب حتى المتطرف منها، ولم يصل إلينا من الاضطهادات إلا القدر القليل بالنسبة لتشعب هذه الآراء والأفكار، وكانت هذه الاضطهادات التي حدثت سياسية أكثر منها دينية.

وكان من مزاياه لذة العقول وغذاؤها ومرانها على التفكير كالمران الذي يستعمله العقل في الحساب والجبر والهندسة.

وكان من مزاياه رقي فن الجدل والمناظرة رقيًا باهرًا، حتى أصبح بعد علمًا توضع له القوانين والقواعد.

ولكنه - من غير شك - أضعف شأن الأمة، فلم تعد الحماسة الدينية كما كانت في عصورها الأولى، فإن قوى العقل فقد ضعف القلب، وإن كثر عدد المسلمين فقد قلت قوتهم، ومن أجل ذلك وقفت الفتوح تقريبًا، وانصرف جهد المسلمين إلى إطفاء الفتن السياسية والفتن الدينية، وأسلم ذلك إلى ما سنرى من انقسام المسلمين سياسيًا إلى ممالك ودول، كما انقسموا قبل إلى مذاهب ونحل.

هذا وقد أثرت هذه المذاهب الدينية والكلامية في الأدب أثرًا كبيرًا ألمعنا إليه قبل، فعمقت موضوعاته، ودقت معانيه؛ وظهر ذلك في الكتب التي ألفت في هذا العصر - وخاصة من المعتزلة - ورأينا الشعراء يتلقفون معاني المتكلمين فيدسونها في أشعارهم، ويعتق الشعراء بعض المذاهب الدينية والكلامية فينتصرون لها ويعيبون ما عداها، ويمدح بعضهم المتكلمين وبعضهم يذمهم، إلى كثير من مثل ذلك. ونحن نسوق طرفًا قليلًا للتمثيل على ما نقول.

يقول محمد بن يسير يعيب المتكلمين:

ياسائلي عن مقالة الشيع
وعن صنوف الأهواء والبدع

فما يقود الكلام ذو ورع
ثم يصيرون بعدد للشنع
لم يك في قوله بمنقطع

دع من يقود الكلام ناحية
كل أناس بديهم حسن
أكثر ما فيه أن يقال له

ويقول غيره في ذلك:

في الدين بالرأي لم تبعث بها الرسل
وفي الذي حملوا من حقه شغل

قد نقر الناس حتى أحدثوا بدعاً
حتى استخف بحق الله أكثرهم

وتعصب الناشئ الشاعر للمتكلمين، فقال يفتخر بالكلام:

بألسنا زينت صدور المحافل
إذا أظلمت يوماً وجوه المسائل
وقلنا فلم نترك مقالاً لقائل

ونحن أناس يعرف الناس فضلنا
تُنير وجوه الحق عند جوابنا
صمتنا فلم نترك مقالاً لصامت

وقال يصف أصحابه من المتكلمين:

يُحس ما أخطأ وفيها يوماً عمدوا
كأنهم وجدوا منها الذي وجدوا
وعلم ما غاب عنها بالذي شهدوا
إلا ومنهم لديها كوكب يقْد

كأنهم في صدور الناس أفئدة
يُبدون للناس ما تخفي ضمائرهم
دلوا على باطن الدنيا بظواهرها
مطالع الحق ما من شبهة غسقت

ثم أخذوا معاني المتكلمين وتلطفوا في عرضها، فقال سعيد بن حميد:

بالعزيم المهيمن الجبار
صرت بعدي تقوّل بالإجبار

قالت: اكتم هواي واكن عن اسمي
قلت: لا أستطيع ذلك، قالت:

وتخلّيت عن مقالة بشرٍ بـ — من غياث لمذهب النجار^(١)

ويقول أبو نواس في ترك الشراب وألم بمذهب الخوارج:

نالني بالملام فيها إمامٌ لا أرى لي خلافةً مُستقيماً
فاصرهاها إلى سواي فإني لستُ إلا على الحديث نديماً
جُلَّ حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشمَّ النسيماً
فكأنّي وما أزين منها قعدي يُزينُ التحكيمياً^(٢)
كل عن حملهِ السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيقتُ ألا يُقيماً

ويقول أبو نواس أيضاً في وصف ممدوحه:

تكل عن إدراك تحصيله عيونُ أوهام الضماير
تنسب الألسنُ من وصفه إلى مدى عجز وتقصير

ويقول فيه:

وليَّ عهدٍ ماله قرينٌ ولا له شبةٌ ولا خدينٌ
أسْتَغفر الله بلى هارونُ يا خير من كان وما يكونُ

إلا النبي الطاهر الميمونُ

ويقول:

كمن الشنان فيه لنا ككُمون النار في حجره

(١) بشر بن غياث: هو بشر المريسي من زعماء المرجئة، وكان يقول: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه. والنجار: هو الحسين بن محمد النجار، إليه تنسب فرقة تسمى النجارية، وقد كان يقول بالجبر.

(٢) القعدي: واحد القعدة، وهم من الخوارج من رأى رأيهم ولكن قعد عن الخروج على الناس.

فيتأثر في ذلك بقول بعض المعتزلة في الكُمون.

ويقول العباس بن الأحنف:

إذا أردت سُئِلُوا كان ناصركم
فأكثرُوا وأقلُوا من إساءتكم
قلبي، وما أنا من قلبي بمتصرٍ
فكل ذلك محمولٌ على القَدَر

وقد غضب أبو الهذيل العلاف المعتزلي من هذا الشعر؛ لأنه يعترف بالجبر،
فهجاه العباس - فيما يُظن - بقوله:

يا من يكذب أخبار الرسول لقد
كذبت بالقَدَرِ الجاري عليك فقد
أخطأت في كل ما تأتي وما تذر
أتاك مني بما لا تشتهي القَدَر

ويقول أبو تمام في وصف الخمر:

جهمية الأوصاف إلا أنهم
قد لقبوها جوهر الأشياء

ويقول محمد بن عبد الملك الزيات يحرص المأمون على إبراهيم بن المهدي:

لم تر أن الشيء للشيء علةٌ
كذلك جربنا الأمور وإنما
يكونُ له كالنار تُقدحُ بالزندِ
وطني بإبراهيم أن فكاكه
يدلك ما قد كان قبلُ على البعدِ
سيعثُ يومًا مثل أيامه النكدِ

والأمثلة على ذلك كثيرة نجتزئ منها بهذا القدر للدلالة على أن المتكلمين أثروا
في الأدب أثرًا بليغًا في الموضوعات، وفي الأشعار، وفي الجدل، وفي الهزل.

وبعد، فهذه صورة للمتكلمين، عرضتها كما فهمتها، وكما أرشدني البحث
الصادق عنها، أثبت ما فيها من خير وشر، ونفع وضر، فإن أصبت فالله أشكر، وإن

أخطأت فحسبي أني أخلصت النية وقصدت إلى الحق.

وأكثر ما أتوقع أن يعتب عليَّ إخواني من الشيعة فيما سلكت من نقدهم، وتزييف بعض آرائهم، وأن يعجبوا من دعوتي إلى الوئام والوفاق، ثم أتبع ذلك بشيء من النقد والتجريح.

فإليهم أقرر مخلصاً أني لم أقصد في كل ما قلت إلا ما اعتقدت حقاً وصواباً، وجاهدت نفسي ألا أتأثر بالفي وعادتي ومذهبي، فلا أنصر رأياً سنياً لسنيته، ولا أجح رأياً معتزلياً لاعتزاله، أو شيعياً لتشيعة. وأظن أن القارئ رأى معي أني قد أنقد الرأي السني وأرجح عليه الرأي المعتزلي أو الشيعي، ولو كنت أتعصب لمذهب لانتصرت له في كل أقواله، ودافعت عنه في جميع آرائه، ولكنني رأيت نصرة الحق خيراً من نصرة المذهب، فلعلمهم بعد ذلك ينصفون فيقرءوا قولي في هدوء وطمأنينة، ويأخذوا منه ما تستحسنه عقولهم، ويردوا كذلك في هدوء ما لا يستحسنون، ويقرءوا حجة بحجة، وبرهاناً برهان، على أنه ليس الغرض الأسمى مقارعة الحجج بالحجج والاعتزاز بالغلبة؛ إنما الغرض الأسمى التعاون على إنهاء أهل هذه الملل ورفع مستواهم، وتنقية الخرافات والأوهام من رءوسهم؛ حتى ينشدوا الحياة الصحيحة، ويتبوءوا من العالم المكان اللائق بهم.

ثم أقرر أن هذا البحث الحر الطليق لا يتنافى والدعوة إلى الوحدّة والوئام، فليس البحث يدعو إلى خصام إذا أخلص الجانبان، وما ينبغي للخلاف بين العلماء واختلاف أظواهرهم ونظرياتهم أن يفرق بين نفوسهم ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، على أنه إن كان ولا بد من عداوة، فمعادة الناس أهون على نفسي من معادة الحق.



والآن أجمع عدتي في البحث، وأدواتي في الدرس، وأنتقل إلى العصر الذي يلي هذا، وهو «ظهر الإسلام» وأعني به المائة الرابعة من التاريخ الإسلامي. وسيروى

القارئ أنه عصر أغزر علمًا، وأوسع نظرًا، وأسطع ضوءًا، وأن الحركة العلمية والأدبية فيه لم تتبع الحركة السياسية، بل كانتا ككفتي ميزان، رجحت الأولى وشالت الثانية.

وأسأل الله العون والهداية والتوفيق.

«تم»